﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

[المؤمنون: 18 - 20]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

علاقةُ ذكر بعضِ دلائلِ قُدرةِ الله تعالى على الخلق، بمنافع الغيث النّازلِ من السَّماء

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لما قبلَها: فهي أنَّهُ بعدَ أنْ ذكرَ اللّهُ تعالى مِنْ دلائلِ قُدرتِهِ خَلْقَ الإنسانِ وخَلْقَ السَّماواتِ السَّبْعِ - ذكرَ إنزالَ الماءِ مِنَ السَّماءِ، فقالَ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ الآيةَ[1].

وقيلَ: مناسبةُ عطفِ إنزالِ ماءِ المطرِ على جملةِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ الآيةَ [المؤمنون: 17]: أنَّ ماءَ المطرِ ينزلُ مِنْ جهةِ السَّماءِ[2].

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى: فهي أنَّهُ سبحانَهُ لمّا نبَّهَ على عظيمِ نعمتِهِ بخَلْقِ الماءِ ذكرَ بعدَهُ النِّعَمَ الحاصلةَ مِنَ الماءِ، فقالَ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ الآيةَ[3].

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّالثةِ للثّانيةِ: فهي أنَّهُ لمّا ذكرَ سبحانَهُ ما إذا عُصِرَ كانَ ماءً لا ينفعُ للاصطباحِ - أتبعَهُ ما إذا عُصِرَ كانَ دُهْنًا يعمُّ الاصطباحَ والاصطباغَ، وفصلَهُ عنهُ؛ لأنَّهُ أدلُّ على القُدرةِ، فقالَ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 28.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 554، ومحيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 153.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِقَدَرٍ﴾، ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِهِ، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كلِّ شيءٍ، يقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: مَبْلَغُهُ، والقَدْرُ والقَدَرُ: قضاءُ اللهِ سبحانَهُ الأشياءَ على مَبالغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها[1]، ويقالُ: الأمورُ تَجْري بقَدَرِ اللهِ ومِقْدارِهِ وتقديرِهِ وأقدارِهِ ومَقاديرِهِ[2]، والأقدرُ مِنَ الخَيْلِ: الَّذي تقعُ رِجْلاهُ مَواقعَ يديهِ، كأنَّ ذلكَ قدَّرَهُ تقديرًا، والتَّقديرُ: تبْيينُ كمِّيَّةِ الشَّيءِ[3].

والقادر: يُقال: رجلٌ ذو قُدرةٍ ومَقْدِرةٍ، أي: يَسارٍ، يعني: أنَّهُ يَبْلُغُ بغِناهُ مِنَ الأمورِ المَبْلَغَ الَّذي يوافقُ إرادتَهُ[4]، ويقالُ: قَدَرَ على الشَّيءِ قُدْرةً، فهو قادرٌ[5]، والقُدرةُ إذا وُصِفَ بها الإنسانُ فهي اسمٌ لهيئةٍ لهُ يتمكَّنُ بها مِنْ فعلِ شيءٍ ما، وإذا وُصِفَ اللهُ تعالى بها فهي نَفْيُ العَجْزِ عنهُ، ولا يوصَفُ غيرُ اللهِ سبحانَهُ بالقُدرةِ المُطلَقةِ[6].

2) ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مطّردٌ يدلُّ على خلافِ الاضطرابِ والحركةِ[7]، واستقرارٍ في جوفِ حيِّزٍ أو باطنٍ[8]، فالسُّكونُ: ثبوتُ الشَّيءِ بعدَ تحرُّكٍ[9]، أو ثبوتُهُ مِنْ غيرِ نظرٍ إلى حركةٍ سابقةٍ[10]، ويُستعمَلُ في الاستيطانِ، نحوُ: سكنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطنَهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنبيهٌ منهُ على إيجادِهِ وقُدرتِهِ على إفنائِهِ، والسَّكَنُ: السُّكونُ وما يُسكَنُ إليهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: 80].

3) ﴿فَأَنشَأْنَا﴾: (نشأ) أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في الشَّيءِ وسُموٍّ، فيقالُ: نشأ السَّحابُ، إذا ارتفعَ، وأنشأهُ اللهُ: رفعَهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: 6] يُرادُ بها القيامُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (قدر).
(3) الراغب، المفردات: (قدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(5) الخليل، العين: (قدر).
(6) الراغب، المفردات: (قدر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(8) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(9) الخليل، العين: (سكن).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سكن).

والانتصابُ للصَّلاةِ[1]، والنَّشْءُ والنَّشْأةُ والإنشاءُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62][2]، والإنشاءُ الاختراعيُّ غيرُ المسبوقِ بمثالٍ لا يليقُ إلّا بالباري ﷻ[3].

4) ﴿نَّخِيلٍ﴾: (نخل) أصلٌ يدلّ على انتقاءِ الشَّيءِ واختيارِه، يقالُ: انتخلتُهُ، أي: انتقيتُهُ، وأخذتُ خيارَهُ، والنَّخْلُ: نَخْلُكَ الدَّقيقَ بالمِنْخَلِ، وسُمّيَ شَجَرُ النَّخْلِ بذلكَ؛ لأنَّهُ أشرفُ كلِّ شَجَرٍ ذي ساقٍ[4]، وقد يُستعمَلُ في الواحدِ والجمعِ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، وقالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: 7][5].

5) ﴿وَأَعْنَابٍ﴾: (عنب) أصلٌ يدلُّ على ثَمَرٍ معروفٍ[6]، وهو يقالُ لثَمَرةِ الكَرْمِ، وللكَرْمِ نفسِهِ، والواحدةُ: عِنَبةٌ، وجمعُهُ: أعنابٌ وعِنَبٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ﴾ [النحل: 67]، وقالَ: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: 91][7].

6) ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾: (طور) أصلٌ يدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ مِنْ مكانٍ أو زمانٍ[8]، ولذلكَ يقالُ: عَدا طَوْرَهُ، أي: جاوزَ الحدَّ الَّذي هو لَهُ مِنْ دارِهِ، ثمَّ استُعيرَ ذلكَ في كلِّ شيءٍ يتعدَّى، ويقالُ: فعلَ ذلكَ طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ، كأنَّهُ فعلَهُ مدَّةً بعدَ مدَّةٍ[9]، والطَّورُ: قيلَ: هو اسمٌ لكلِّ جبلٍ، وقيلَ: اسمٌ لجبلٍ مخصوصٍ[10]، وطورُ سَيْناءَ: جبلٌ معروفٌ بالشّامِ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾[11].

7) ﴿تَنۢبُتُ﴾: (نبت) أصلٌ يَدُلُّ على نَماءٍ في مزروعٍ[12]، فالنَّبْتُ والنَّباتُ: ما يخرجُ مِنَ الأرضِ مِنَ النّامياتِ، سواءٌ كانَ لهُ ساقٌ كالشَّجَرِ، أو لم يكنْ لهُ ساقٌ كالنَّجْمِ، ويُستعمَلُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ).
(2) الراغب، المفردات: (نشأ).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سكن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ)، والزبيدي، تاج العروس: (نخل).
(5) الراغب، المفردات: (نخل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نخل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنب).
(7) الراغب، المفردات: (عنب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طور)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (طور).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طور)، والراغب، المفردات: (طور).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طور).
(11) الراغب، المفردات: (سين)، والزبيدي، تاج العروس: (طور).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبت)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (نبت).

كلِّ نامٍ، نباتًا كانَ أو حيوانًا أو إنسانًا، والإنباتُ يُستعمَلُ في كلِّ ذلكَ، قالَ تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ [عبس: 27 - 31][1]، ويقالُ: نَبَتَ فلانٌ في مَنْبَتِ صِدْقٍ، وفي أكرمِ المَنابتِ[2]، وقولُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ معناهُ: تَنْبُتُ حاملةً للدُّهْنِ، أي: تَنْبُتُ والدُّهْنُ موجودٌ فيها بالقوَّةِ[3].

8) ﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾: (دهن) أصْلٌ واحدٌ يدلُّ على لينٍ وسُهولةٍ وقِلَّةٍ، ومِنْ ذلكَ الدُّهْنُ[4]، قالَ سبحانَهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، وجمعُ الدُّهْنِ: أدهانٌ[5]، والدِّهانُ: ما يُدْهَنُ بهِ، قالَ اللّهُ سبحانَهُ: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ [الرحمن: 37]، قيلَ: هو دُرْدِيُّ الزَّيْتِ، والمُداهَنةُ: المُصانَعةُ، يقالُ: داهَنْتُ الرَّجلَ، إذا وارَبْتَهُ وأظهرتَ لهُ خلافَ ما تُضْمِرُ لهُ، كأنَّهُ إذا فعلَ ذلكَ فهو يَدْهَنُهُ ويُسْكِنُ منهُ[6]، ويقالُ: دَهَنَ المطرُ الأرضَ: بلَّلَها بَلَلًا يسيرًا، كالدُّهْنِ الَّذي يُدْهَنُ بهِ الرَّأسُ[7]، وقولُهم: دَهَنَهُ بالعَصا: كنايةٌ عنِ الضَّربِ على سبيلِ التَّهكُّمِ، كقولِهم: مَسَحْتُهُ بالسَّيفِ، وحيَّيْتُهُ بالرُّمْحِ[8].

9) ﴿وَصِبۡغٖ﴾: (صبغ) أصلٌ يدلُّ على تلوينِ الشَّيءِ بلونٍ ما، تقولُ: صَبَغْتُهُ أصبغُهُ صَبْغًا[9]، والصِّبْغُ والصِّبْغةُ: ما يُصْبَغُ بهِ[10]، والصِّبْغُ: المصبوغُ، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138] إشارةٌ إلى ما أوجدَهُ اللّهُ تعالى في النّاسِ مِنَ العقلِ المميِّزِ عنِ البهائمِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٰكِلِينَ﴾ يعني: أنَّ الزَّيتَ مُصطبَغٌ بهِ للأكلِ بمنزلةِ الإدامِ، وذلكَ مِنْ قولِهم: اصطبغتُ بالخَلِّ[11].

(1) الراغب، المفردات: (نبت)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبت).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (نبت).
(3) الراغب، المفردات: (نبت)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دهن).
(5) الراغب، المفردات: (دهن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دهن).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (دهن).
(8) الراغب، المفردات: (دهن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبغ)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (صبغ).
(10) الجوهري، الصحاح: (صبغ).
(11) الراغب، المفردات: (صبغ)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صبغ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللهُ ﷻ عن بعضِ نِعَمِهِ الَّتي أنعمَ بها على عِبادِهِ في المَطاعمِ والمَشاربِ، فيقولُ: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ مُعيَّنٍ على وفْقِ ما اقتضَتْهُ حِكْمَتُنا، فأسكنّاهُ في الأرضِ، وإنّا على أنْ نذهبَ بالماءِ الَّذي أسكنّاهُ في الأرضِ وأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ لقادرونَ، فتَهْلِكوا أيُّها النّاسُ عَطَشًا، وتَخْرَبَ أرضُكم، فلا تُنْبِتَ زَرْعًا ولا غَرْسًا، وتَهْلِكَ مَواشيكم.

نِعَمُ اللهِ بالماء، وما ينبته من فواكه وثمار، ومنها الزّيتون مأكولًا ودهنًا

ثمَّ يُخبرُ ﷻ عن بعضِ ما أنبتَهُ بهذا الماءِ، فيقولُ: فأحدَثْنا لكُم بالماءِ الَّذي أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ بساتينَ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ، لكُم في الجنّاتِ فواكهُ كثيرةٌ، ومِنَ الجنّاتِ تأكلونَ، وأنشَأْنا لكُم أيضًا شجرةً مباركةً تَخْرُجُ مِنْ طورِ سَيْناءَ، وهي شجرةُ الزَّيتونِ، فيها منافعُ لكُم في الأكلِ مِنْ ثمارِها، والائتدامِ بزَيْتِها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواوِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾:

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: 17]، ومناسبةُ هذا العطفِ: أنَّ ماءَ المطرِ ينزلُ مِنْ جهةِ السَّماءِ، وفي إنزالِ ماءِ المطرِ دلالةٌ على سَعَةِ العِلمِ ودقيقِ القُدرةِ، وفي ذلكَ أيضًا مِنَّةٌ على الخَلْقِ[2].

أثرُ وصلِ الجمل في ترسيةِ المعنى وتكامله

نكتةُ إسنادِ الإنزالِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

أُسنِدَ الفعلُ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ في قولِ اللهِ علَتْ قُدرتُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى نونِ العظَمةِ؛ لتعظيمِ شأنِ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ؛ لأنَّ فيهِ دلالةً على سَعَةِ العِلمِ ودقيقِ القُدرةِ[3]،

إنـزالُ المـاءِ مِـنَ السَّـمـاءِ سببٌ للحياة ومظهرٌ للإنبات

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 20 - 21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 28.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 28.

ولا يَقْدِرُ عليهِ إلّا ذو العظَمةِ والجلالِ تقدَّستْ آلاؤُهُ، والمعنَى: وأنزَلْنا بعظَمتِنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ، فأسكنّاهُ في الأرضِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ ماضيًا:

بيانُ أنَّ صيغةَ الماضي تلائم ما في السّياق من صيغ الماضي

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾؛ لدلالةِ الماضي على تحقُّقِ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ وحصولِهِ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ بيانِ عظيمِ قُدرتِهِ ﷻ، وأوفقُ بمقامِ الامتنانِ على العِبادِ؛ لأنَّ الامتنانَ بنِعْمةٍ حاصلةٍ كائنةٍ، وفيهِ أيضًا ملاءمةٌ لصيَغِ الماضي الواردةِ في الآياتِ السّابقةِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، وقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: 17]، وفي الآياتِ اللّاحقةِ، كما في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾.

معنى ﴿مِنَ﴾ في شبه الجملة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الماءُ ينزل مِنَ السَّماءِ بقدر؛ ليحيىَ الأرض وينفع البشر

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بـ﴿وَأَنزَلْنَا﴾[2]، والمعنَى: وأنزَلْنا ابتداءً مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ، فأسكنّاهُ في الأرضِ.

المرادُ بالسَّماءِ في قولِهِ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماءُ سقفٌ مرفوع، لتنزُّل عطاء الله اللّامقطوع

اختُلِفَ في المرادِ بالسَّماءِ في قولِ الحقِّ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾:

فقيلَ: إنَّهُ تعالى يُنزِلُ الماءَ في الحقيقةِ مِنَ السَّماءِ المعروفةِ، وهو الظّاهرُ مِنَ اللَّفظِ، ويُؤكِّدُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: 22].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.

وقيلَ: المرادُ: السَّحابُ، وسمّاهُ سماءً لعُلوِّهِ[1].

وقيلَ: المرادُ بالسَّماءِ: جهةُ العُلوِّ[2].

بلاغةُ العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ:

السَّماءُ جهةُ العلوِّ الدّالَّة على العظمة والسُّموِّ

على القولِ بأنَّ المرادَ بالسَّماءِ السَّماءُ المعروفةُ، كما هو الظّاهرُ يكونُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ عُدولٌ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، حيثُ لم يُقَلْ: (وأنزَلْنا منها ماءً بقَدَرٍ)، أي: مِنَ الطَّرائقِ المذكورةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: 17]، والطَّرائقُ السَّماواتُ، وفائدةُ هذا العُدولِ أنَّ الإنزالَ لا يُعتبَرُ فيهِ عُنوانُ كونِها طرائقَ، بل مُجرَّدُ كونِها جهةَ العُلوِّ[3].

وقيلَ: العُدولُ؛ لأنَّ الإنزالَ مِنْ هذهِ السَّماءِ فقطْ لا مِنَ السَّماواتِ جميعًا[4].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

مناطُ التَّقديمِ الاعتناءُ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقُ إلى المؤخَّرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على المفعولِ الصَّريحِ، في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾؛ لما في هذا التَّقديمِ مِنَ الاعتناءِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[5]؛ لأنَّهُ يُقدَّمُ في الكلامِ ما هو مَحَلُّ العِنايةِ، لا سيَّما والمقامُ مقامُ بيانِ كمالِ قُدرتِهِ ﷻ على إنزالِ الماءِ بقَدَرٍ مخصوصٍ مِنَ السَّماءِ الَّتي هي الغايةُ في البُعْدِ والارتفاعِ، وفي التَّأخيرِ تشويقٌ إلى المُؤخَّرِ وتهيئةٌ للنَّفْسِ لِتَلقّيهِ، فإذا وردَ عليها تمكَّنَ فيها فضلَ تمكُّنٍ.

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ تعالى: ﴿مَآءً﴾:

بيانُ أنَّ الاختلافَ في دلالةِ اللَّفظِ دليلٌ على اتِّساعِ المعنى المراد

اختُلِفَ في المرادِ بالماءِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 268، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.
(4) اطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 370.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.

فقيلَ: المرادُ بهِ المطرُ[1]، وقيلَ: المرادُ الأنهارُ الخمسةُ: سَيْحانُ وجَيْحانُ ودجلةُ والفُراتُ والنّيلُ، أنزلَها اللّهُ تعالى مِنْ عَيْنٍ واحدةٍ مِنْ عُيونِ الجنَّةِ، فاستودعَها الجبالَ، وأجراها في الأرضِ، وجعلَ فيها منافعَ للنّاسِ في فُنونِ مَعايشِهم[2].

وقيلَ: الصَّوابُ أنَّ هذا كلَّهُ داخلٌ تحتَ الماءِ الَّذي أنزلَهُ اللّه تعالى مِنَ السَّماءِ[3].

وبناءً على هذهِ الأقوالِ يكونُ تنكيرُ ﴿مَآءً﴾ للتَّبعيضِ؛ إذ لم يَنْزِلْ ماءُ البِحارِ مثلًا مِنَ السَّماءِ.

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ ماءُ المطرِ يحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً عظيمًا عجيبَ الشَّأنِ، وهو المطرُ.

سرُّ تعدُّدِ المعنى في لفظ ﴿بِقَدَرٍ﴾:

تعـدُّدُ تأويـل المعاني مبينٌ عن المراد من السّياق

يحتملُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أنْ يكونَ معناهُ: بتقديرٍ يَسْلَمونَ معَهُ مِنَ المَضَرَّةِ، ويَصِلونَ إلى المَنْفَعةِ[4]، أي: بقَدَرِ ما يَسْقي الزُّروعَ والأشجارَ، ويُحيي البَراريَ والقِفارَ، وما تحتاجُ إليهِ البِحارُ ممّا تصبُّ فيها الأنهارُ؛ إذ لو كانَ فوقَ ذلكَ لأغرقتِ البِحارُ الأقطارَ، ولو كانَ دونَ ذلكَ لَأدَّى إلى جفافِ النَّباتِ والأشجارِ[5]، وعلى هذا يكونُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ صفةَ ﴿مَآءً﴾ أو حالًا مِنَ الضَّميرِ[6].

ويحتملُ أنْ يكونَ معناهُ: بمِقْدارِ ما عَلِمْنا مِنْ صلاحِهم[7]، وعلى هذا يكونُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ صِلَةً لـ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾[8].

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 463، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 127.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 127.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 323.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(8) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 323.

بلاغةُ التَّعبيرِ بشبه الجملة: ﴿بِقَدَرٍ﴾:

قيلَ: معنى القَدَرِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾: التَّقديرُ والتَّعيينُ للمِقْدارِ في الكَمِّ وفي النَّوْبةِ، فيصحُّ أنْ يُحمَلَ على صريحِهِ، أي: بمِقْدارٍ مُعيَّنٍ مُناسِبٍ للإنعامِ بهِ؛ لأنَّهُ إذا أُنزِلَ كذلكَ حصلَ بهِ الرِّيُّ والتَّعاقبُ، وكذلكَ ذَوَبانُ الثُّلوجِ النّازلةِ، ويصحُّ أنْ يُقصَدَ معَ ذلكَ الكنايةُ عنِ الضَّبْطِ والإتقانِ[1].

ملمحُ حمْلِ المعنى على الصَّريحِ والكنايةِ مفيدٌ في البيان

نكتةُ تَنكيرِ لفظ ﴿بِقَدَرٍ﴾:

يحتملُ تنكيرُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، أنْ يكونَ للنَّوعيَّةِ، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ مُعيَّنٍ، وهو ما يكونُ فيهِ النَّفْعُ، ولا تحصلُ بهِ المَضَرَّةُ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ بديعٍ عظيمِ الشَّأنِ؛ إذ لا يعلمُ مِقْدارَ حاجةِ العِبادِ إلّا ربُّ العِبادِ ﷻ.

التَّنكيرُ مبينٌ عن تنوُّعِ بيانِ الألفاظِ، ودقَّةِ استعمالِها

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾:

الفاءُ في قولِ اللهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للعطفِ، فتفيدُ عطفَ هذهِ الجملةِ على جملةِ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، فيكونُ كلٌّ مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وإسكانِهِ في الأرضِ داخلًا في الاستدلالِ على عظيمِ قُدرتِهِ ﷻ.

الاستدلالُ بإسكانِ الماءِ على قدرةِ ربِّ الأرضِ والسَّماءِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِهِ: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على أنَّ إسكانَ الماءِ في الأرضِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضى، فهو مُشاهَدٌ محسوسٌ، لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليهِ، وفي التَّعبيرِ بهذهِ الصّيغةِ أيضًا ملاءمةٌ للمعطوفِ عليهِ، وهو قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾؛ فإنَّ مِنْ مُحسِّناتِ الوصلِ بينَ الجملِ توافُقَها في الصّيغةِ.

إفادةُ التَّحقُّقِ، وملاءمةُ المعطوفِ عليهِ من فصيحِ البيان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.

نكتةُ إسنادِ الإسكانِ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ إسكانِ الماءِ في الأرضِ، لعجز غيرِ اللهِ عن فعلِهِ

أُسنِدَ الفعلُ ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ إسكانِ الماءِ في الأرضِ بحيثُ يَبْقَى مُنتفَعًا بهِ؛ فذلكَ ممّا لا يَصْدُرُ إلّا عن كمالِ القُدرةِ ونهايةِ العظَمةِ، والمعنى: فأسكنّاهُ بعظَمتِنا في الأرضِ، بعضُهُ على ظَهْرِها، وبعضُهُ في بَطْنِها[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾:

الإسكانُ إقرارٌ في الأرضِ، تتجلّى فيه قدرة الله تعالى

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، بيانُها: أنَّ الإسكانَ في الأصلِ: جعلُ الشَّيءِ في مَسْكَنٍ، والمَسْكَنُ: مَحَلُّ القرارِ، وأُطلِقَ الإسكانُ على الإقرارِ في الأرضِ على طريقِ الاستعارةِ، حيث شُبِّهَ إقرارُ الماءِ في الأرضِ بالسُّكنى، وذلك لكمالِ التّوطّن، حيث إنّ ذلكَ الإقرارَ على نوعينِ: إقرارٍ قصيرٍ، كإقرارِ ماءِ المطرِ في القِشْرةِ الظّاهرةِ مِنَ الأرضِ عَقِبَ نُزولِ الأمطارِ على حسَبِ ما تقتضيهِ غَزارةُ المطرِ ورخاوةُ الأرضِ وشدَّةُ الحرارةِ أو شدَّةُ البَرْدِ، وهو ما يُنْبَتُ بهِ النَّباتُ في الرَّبيعِ، وتمتصُّ منهُ الأشجارُ بعُروقِها، فتُثمِرُ إثمارَها، وتخرجُ بهِ عُروقُ الأشجارِ وأصولُها مِنَ الأرضِ.

ونوعٍ آخرَ هو إقرارٌ طويلٌ، وهو إقرارُ المياهِ الَّتي تنزلُ مِنَ المطرِ، وعن ذَوْبِ الثُّلوجِ النّازلةِ، فتتسرَّبُ إلى داخلِ الأرضِ، فتنشأُ منها العُيونُ الَّتي تنبُعُ بنفسِها أو بالحَفْرِ للآبارِ[2].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الأرضُ وعاءٌ للماءِ المُنْزَلِ مِنَ السَّماءِ للإنبات والحياة

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ على أنَّ مَقَرَّ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.

هو الأرضُ، فمنهُ الأنهارُ والعُيونُ والآبارُ[1]، والأرضُ مُشتملةٌ عليه اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، فسُبحانَ القادرِ العظيمِ جلَّ وعزَّ!

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اللّامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للعهدِ، والمرادُ: فأسكنّاهُ في الأرضِ المعهودةِ الَّتي يعيشُ على ظَهْرِها النّاسُ، وهذا مِنْ تمامِ نعمةِ اللهِ ﷻ، حيثُ جعلَ الماءَ بالقُرْبِ منهُم، وفي مُتناوَلِهم.

الإسكانُ المعهودُ للماءِ، ضمانٌ لانبعاثِ الحياةِ واستمرارِها

بلاغةُ التَّقابُلِ في الآيةِ الكريمة:

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مقابلةٌ لطيفةٌ، حيثُ قوبِلَتِ السَّماءُ الَّتي هي الغايةُ في الارتفاعِ بالأرضِ الَّتي هي الغايةُ في الانخفاضِ، وهذا من طباقِ الإيجابِ، وقوبلَ الإنزالُ الَّذي فيهِ حركةٌ وانتقالٌ بالإسكانِ الَّذي فيهِ ثَباتٌ وقَرارٌ.

مدلولُ مقابلةِ السَّماءِ بالأرضِ، والإنزالِ بالإسكانِ

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿وَإِنَّا﴾ و﴿لَقَٰدِرُونَ﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ حالٌ[2]، والمعنَى: وإنّا على ذهابٍ بهِ بالإفسادِ أوِ التَّصعيدِ أوِ التَّعميقِ بحيثُ يتعذَّرُ استنباطُهُ - لقادرونَ كما كنّا قادرينَ على إنزالِهِ[3].

تنوُّعُ معاني العبارةِ، منبئٌ أنَّ الإعرابَ فرعٌ عن المعنى

وقيلَ: الجملةُ معترضةٌ بينَ الجملةِ السابقةِ وما تفرَّعَ عليها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾[4].

علَّةُ توالي المؤكِّداتِ في السّياق:

في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ إيعادٌ عظيمٌ بإذهابِ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، وفي هذا الإيعادِ مبالغةٌ يقتضيها المقامُ؛ لأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ بعدَ تعدادِ نِعَمِ الأنفُسِ والآفاقِ،

ملاءمةُ كثرةِ المؤكِّداتِ لمقامِ الإيعادِ، مبينٌ عن المرادِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 554.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.

واستجلابِ الشُّكرِ لها، والتَّحذيرِ مِنْ كُفْرانِها، ولذلكَ أُكِّدَتِ الجملةُ بأنواعٍ مِنَ المُؤكِّداتِ، حيثُ جيءَ بها اسميَّةً مُصدَّرةً بـ (إنَّ) مُؤكَّدةً باللّامِ، وقُدِّمَ فيها المعمولُ على العاملِ، وأُتيَ بصيغةِ الكِبْرياءِ والعظَمةِ، وبحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الاستصحابِ، أي: يأخذُهُ اللّهُ معَهُ، ويُمسِكُهُ عندَهُ، وما يُمسِكْ فلا مُرسِلَ لهُ مِنْ بَعْدِهِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ العظَمةِ في ﴿وَإِنَّا﴾:

تعظيمُ شأنِ الذَّهابِ بالماءِ، مفصح عن قدرة الله على الفعل

يدلُّ التَّعبيرُ بضميرِ العظَمةِ والكِبْرياءِ، وهو ضميرُ الجماعةِ في ﴿وَإِنَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ - على تعظيمِ شأنِ الذَّهابِ بالماءِ الَّذي أنزلَهُ اللّهُ ﷻ مِنَ السَّماءِ، وأسكنَهُ في الأرضِ، والمعنَى: وإنّا بكِبْريائِنا وعظَمتِنا على ذهابٍ بهِ لقادرونَ، وهذا التَّعظيمُ يناسبُ مقامَ الإيعادِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بشبْهِ الجُملة: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ﴾:

معنى الاستعلاءِ على الذَّهابِ بالماءِ، منبئٌ عن طلاقة القدرة وعظمتها

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ معَ مجرورِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ مُتعلِّقانِ بقولِهِ: ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾[2]، و﴿عَلَىٰ﴾ يدلُّ على الاستعلاءِ، فيفيدُ أنَّ الذَّهابَ بالماءِ مقهورٌ بقُدرةِ اللّهِ تعالى، وهي مُستعليةٌ عليهِ، ومُحيطةٌ بهِ بحيثُ لا يَفوتُها.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿ذَهَابٍ﴾ في السّياق:

النَّكرةُ في الإثباتِ عامَّةٌ، على سبيلِ العُمومِ البَدَليِّ المبين

تنكيرُ ﴿ذَهَابٍ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، لتعظيمِ شأنِ الذَّهابِ وتفخيمِهِ، والمعنَى: على وجهٍ مِنْ وجوهِ الذَّهابِ بهِ، وطريقٍ مِنْ طُرُقِهِ، أي: ذهابٍ لا يُكتنَهُ كُنْهُهُ، ولا يُقادَرُ قَدْرُهُ، بحيثُ إنْ تُصوِّرَ أنْ ينقلبَ الماءُ إلى ضدِّهِ لجازَ ذلكَ، وفيهِ إيذانٌ باقتدارِ المُذهِبِ تعالى، وأنَّهُ لا يمتنعُ عليهِ شيءٌ إذا أرادَهُ[3].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 222.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 325.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564.

وقيلَ: النَّكرةُ في الإثباتِ عامَّةٌ على سبيلِ العُمومِ البَدَليِّ، كالَّتي في النَّفْيِ للعُمومِ الشُّموليِّ، فحصلتِ المبالغةُ في الإثباتِ بذلكَ، كما حصلَتْ في النَّفْيِ، والمعنَى: نُذْهِبُهُ أيَّ إذهابٍ شِئْنا[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِهِ: ﴿ذَهَابٍ﴾:

ملمحُ التَّوصُّل بالمصدرِ إلى التَّنكيرِ المُفيدِ للتَّعظيمِ

عُبِّرَ بصيغةِ المصدرِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، ولم يُعبَّرْ بصيغةِ الفعلِ، فلم يُقَلْ: (وإنّا على أنْ نذهبَ بهِ لقادرونَ)؛ لِما في التَّعبيرِ بالمصدرِ مِنَ التَّوصُّلِ إلى التَّنكيرِ المُفيدِ للتَّعظيمِ المُناسبِ لمقامِ الإيعادِ.

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في السّياق:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ ومراعاةُ الفاصلةِ مقصدٌ مبين عن الدَّلالة

الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ مُتعلِّقانِ بقولِهِ: ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾[2]، وقد قُدِّما معَ ﴿بِهِۦ﴾ - المُتعلَّقِ بالمصدرِ - عليهِ؛ اعتناءً بهما، وتقويةً لمقامِ الإيعادِ[3]، ولِما في تأخيرِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها مِنَ الفواصلِ.

معنى الباءِ في شبه الجملة: ﴿بِهِۦ﴾:

المبالغةُ في الإبعادِ من فصيحِ البيانِ المستفادِ

الباءُ الجارَّةُ في قولِ الحقِّ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ للاستصحابِ[4]، ويمكنُ أن تكونَ للتّعدية، وهي مرادفةٌ للهمزةِ، ومِثلُها الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 20]، أي: وإنّا على إذهابِهِ لقادرونَ[5]، وفي التَّعبيرِ بها مبالغةٌ في مقامِ الإيعادِ والتَّخويفِ، إذِ المعنَى: أنَّ اللّهَ تعالى يأخذُ الماءَ معَهُ، ويُمسِكُهُ عندَهُ، وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لهُ مِنْ بعدِهِ[6]، ولا يَقْدِرُ أحدٌ على أخذِهِ وردِّهِ.

(1) أطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 370.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 325.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 325.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.

عَوْدُ الضَّميرِ في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

الضَّميرُ راجعٌ للماءِ لإبراز مسلكِ القدرة في الذَّهاب به

ضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ راجعٌ للماءِ المذكورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾، والمعنَى: وإنّا على ذهابٍ بالماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ الَّذي أسكنّاهُ في الأرضِ لقادرونَ.

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾:

تعبيرُ السّياق عن قدرة الله تعالى الَّتي لا يعجزها شيء

لامُ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، هي اللّامُ المُزحلَقةُ الواقعةُ في خبرِ ﴿وَإِنَّا﴾، وفي التَّعبيرِ بها زيادةُ مبالغةٍ وتأكيدٍ لمقامِ الإيعادِ والتَّخويفِ والإنذارِ؛ لأنَّ هذهِ اللّامَ يُؤتى بها لتوكيدِ مضمونِ الجملةِ المُثبَتةِ، وإزالةِ الشَّكِّ عن معناها المُثبَتِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ بالجمع:

المبالغةُ وملاءمةُ (وَإِنّا) مفيدةٌ في التَّعليل

في التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ دلالةٌ على القُدرةِ على الذَّهابِ بالماءِ، والفعلُ الواقعُ مِنَ القادرِ أبلغُ، وصيغةُ اسمِ الفاعلِ تدلُّ على دوامِ الاقتدارِ وثباتِهِ، فهو اقتدارٌ لا يعتريهِ عَجْزٌ في حالٍ مِنَ الأحوالِ، وفي جمعِ اسمِ الفاعلِ زيادةُ مبالغةٍ تلائمُ مقامَ الإيعادِ والتَّخويفِ[1]، والمعنَى: وإنّا على ذهابٍ بهِ لقادرونَ قُدرةً هي في نهايةِ العظَمةِ، فإيّاكم والتَّعرُّضَ لِما يُسْخِطُنا[2].

وأيضًا في التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ المجموعِ مراعاةٌ للتَّناسبِ اللَّفظيِّ بينَهُ وبينَ ﴿وَإِنَّا﴾، فكلٌّ منهما جمعٌ دالٌّ على الكِبْرياءِ والعظَمةِ.

دلالةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ آيتي (المؤمنون والملك):

في هذهِ الآيةِ مبالغةٌ إيجابيَّة مِنْ عدَّة وجوهٍ

في معنى هذهِ الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: 30]؛ ففي كلٍّ منهما تهديدٌ بإذهابِ الماءِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

وقد ذكرَ الزمخشريُّ أنَّ آيةَ سورة المؤمنون بليغة في الإيعادِ والتَّخويفِ[1]، وقد ذُكِرَ للأبلغيَّةِ ثلاثين وجهًا؛ خلاصتها: **الأوَّلُ**: أنَّ ذلكَ على الفَرْضِ والتَّقديرِ، وهذا على الجَزْم، على معنى أنَّهُ أدلُّ على تحقيقِ ما أوعدَ بهِ وإنْ لم يقعْ، **والثّاني**: التَّوكيدُ بـ (إنَّ)، **والثّالثُ**: اللّام في الخبرِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾، **والرّابعُ**: أنَّ هذهِ في مُطلَقِ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، وتلكَ في ماءٍ مُضافٍ إليهم، **والخامسُ**: أنَّ الغائرَ قد يكونُ باقيًا، بخلافِ الذّاهبِ، **والسّادسُ**: ما في تنكيرِ ﴿ذَهَابٍ﴾ مِنَ المبالغةِ، **والسّابعُ**: إسنادُهُ هنا إلى مُذهِبٍ، بخلافِهِ في موضعِ سورة الملك، حيثُ قيلَ: ﴿غَوْرًا﴾ [الملك: 30]، **والثّامنُ**: ما في ضميرِ المُعظِّمِ نفسَهُ مِنَ الرَّوعةِ، **والتّاسعُ**: ما في ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على القُدرةِ عليهِ، والفعلُ الواقعُ مِنَ القادرِ أبلغُ، **والعاشرُ**: ما في جمعِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ مِنَ المبالغةِ، **والحادي عشرَ**: ما في لفظِ ﴿بِهِۦ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّ ما يُمسِكُهُ تعالى فلا مُرسِلَ لهُ مِنْ بعدِهِ، **والثّاني عشرَ**: إخلاؤُهُ مِنَ التَّعقيبِ بإطماعٍ، وهنالكَ ذُكِرَ الإتيانُ المُطمِعُ، **والثّالثَ عشرَ**: تقديمُ ما فيهِ الإيعادُ، وهو الذَّهابُ على ما هو كالمتعلَّقِ لهُ أو متعلَّقُهُ، **والرّابعَ عشرَ**: ما بينَ الجملتينِ الاسميَّةِ والفعليَّةِ مِنَ التَّفاوتِ ثباتًا وغيرَهُ، **والخامسَ عشرَ**: ما في لفظِ ﴿أَصْبَحَ﴾ [الملك: 30] مِنَ الدَّلالةِ على الانتقالِ والصَّيرورةِ، **والسّادسَ عشرَ**: أنَّ الإذهابَ هنا مُصرَّحٌ بهِ، وهنالكَ مفهومٌ مِنْ سياقِ الاستفهامِ، **والسّابعَ عشرَ**: أنَّ هنالكَ نفيَ ماءٍ خاصٍّ، وهو المَعينُ، بخلافِهِ هنا، **والثّامنَ عشرَ**: اعتبارُ مجموعِ هذهِ الأمورِ الَّتي يكفي كلٌّ منها مُؤكِّدًا[2].

وزيدَ على الوجوهِ السّابقةِ:

التّاسعَ عشرَ: إخبارُهُ تعالى نفسهِ بهِ مِنْ دونِ أمرٍ للغيرِ هنا، بخلافِهِ هناكَ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أمرَ نبيَّهُ ﷺ أنْ يقولَ ذلكَ، **والعشرونَ**: عدمُ تخصيصِ مُخاطَبٍ هنا، وتخصيصُ الكفّارِ بالخطابِ هناكَ، **والحادي والعشرونَ**: التَّشبيهُ المُستفادُ مِنْ جعلِ الجملةِ حالًا؛ فإنَّهُ يُفيدُ تحقيقَ القُدرةِ، ولا تشبيهَ هناكَ، **والثّاني والعشرونَ**: إسنادُ القُدرةِ إليهِ تعالى مرَّتينِ، **والثّالثُ والعشرونَ**: تضمينُ الإيعادِ هنا إيعادَهم بالإبعادِ عن رحمةِ اللّهِ؛ لأنَّ (ذهبَ بهِ) يستلزمُ مصاحبةَ الفاعلِ المفعولَ، وذهابُ اللّهِ تعالى عنهُم معَ الماءِ بمعنى ذهابِ رحمتِهِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 30 - 31، نقلاً عن الفالي صاحب التقريب.

سبحانَهُ عنهُم ولَعْنِهم وطَرْدِهم عنها، ولا كذلكَ ما هناكَ، **والرّابعُ والعشرونَ**: أنَّهُ ليسَ الوقتُ للذَّهابِ مُعيَّنًا هنا، بخلافِهِ في ﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ [الملك: 30]؛ فإنَّهُ يُفهَمُ منهُ أنَّ الصَّيرورةَ في الصُّبحِ، **والخامسُ والعشرونَ**: أنَّ جهةَ الذَّهابِ بهِ ليستْ مُعيَّنةً بأنَّها السُّفْلُ، أي: ما دلَّ عليهِ لفظُ ﴿غَوْرًا﴾ [الملك: 30]، **والسّادسُ والعشرونَ**: أنَّ الإيعادَ هنا بما لم يُبْتَلوْا بهِ قطُّ، بخلافِهِ بما هناكَ، **والسّابعُ والعشرونَ**: أنَّ الموعَدَ بهِ هنا إنْ وقعَ فهُم هالكونَ البتَّةَ، **والثّامنُ والعشرونَ**: أنَّهُ لم يَبْقَ هنا لهُم مُتشبَّثٌ ولو ضعيفًا في تأميلِ امتناعِ الموعَدِ بهِ، وهناكَ حيثُ أُسنِدَ الإصباحُ غَوْرًا إلى الماءِ، والماءُ لا يُصبِحُ غَوْرًا بنفسِهِ، **والتّاسعُ والعشرونَ**: أنَّ الموعَدَ بهِ هنا يحتملُ في بادئِ النَّظرِ وقوعُهُ حالًا، بخلافِهِ هناكَ؛ فإنَّ المستقبلَ مُتعيِّنٌ لوقوعِهِ بدليلِ ﴿إِنْ﴾ [الملك: 30]، والتَّهديدُ بمحتملِ الوقوعِ في الحالِ أهوَلُ، ومُتعيِّنُ الوقوعِ في الاستقبالِ أهوَنُ، **والثّلاثونَ**: أنَّ ما هنا لا يحتملُ غيرَ الإيعادِ، بخلافِ ما هناكَ؛ فإنَّهُ يحتملُ ولو على بُعْدٍ أنْ يكونَ المرادُ بهِ الامتنانَ بأنَّهُ إنْ أصبحَ ماؤُكم غَوْرًا فلا يأتيكُم بماءٍ مَعينٍ سوى اللّهِ تعالى[1].

وقيلَ في بيانِ سببِ وفْرةِ الخصائصِ في آيةِ سورةِ المؤمنينَ: إنَّ آيةَ سورةِ المؤمنينَ قُصِدَ منها الإنذارُ والتَّهديدُ بسَلْبِ تلكَ النِّعمةِ العظيمةِ، وأمّا آيةُ سورةِ المُلْكِ فالقصدُ منها الاعتبارُ بقُدرةِ اللّهِ تعالى على سَلْبِها، فاختلافُ المقامينِ لهُ أثرٌ في اختلافِ المُقتضَياتِ، فكانَتْ آيةُ سورةِ المؤمنينَ آثرَ بوفرةِ الخصائصِ المناسبةِ لمقامِ الإنذارِ والتَّهديدِ.

وسورةُ المُلْكِ نزلَتْ عَقِبَ نُزولِ سورةِ المؤمنينَ، وقد يتداخلُ نُزولُ بعضِها معَ نُزولِ بعضِ سورةِ المؤمنينَ، فلمّا أُشْبِعَتْ آيةُ سورةِ المؤمنينَ بالخصوصيّاتِ الَّتي اقتضاها المقامُ اكتُفِيَ عن مِثْلِها في نظيرتِها مِنْ سورةِ المُلْكِ، فسُلِكَ في الثّانيةِ مَسْلَكُ الإيجازِ؛ لقُرْبِ العهدِ بنظيرتِها[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا﴾:

الفاءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ عاطفةٌ[3]، وهي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 222.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29 - 33.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.

تُفيدُ عطفَ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وكلٌّ منهما مِنْ دلائلِ قُدرةِ اللهِ تعالى.

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على أنَّ إنشاءَ الجنّاتِ أمرٌ واقعٌ مُتحقِّقٌ مُشاهَدٌ، لا يحتاجُ إلى إقامةِ بُرهانٍ أو دليلٍ عليهِ، وإنَّما المقصودُ لَفْتُ النَّظرِ إليهِ، والحثُّ على التأمُّلِ والاعتبارِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ بيانِ قُدرةِ اللهِ ﷻ، ومقامِ امتنانِهِ على عِبادِهِ بهذهِ النِّعَمِ؛ إذِ الامتنانُ بنِعَمٍ حاصلةٍ.

مناسبةُ السّياقِ لمقامِ الامتنانِ، وبيانِ جلالِ القُدرةِ

نكتةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ ﴿فَأَنشَأْنَا﴾:

يدلُّ إسنادُ فعلِ الإنشاءِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ على تعظيمِ شأنِ إنشاءِ الجنّاتِ ببيانِ كونِهِ صادرًا مِنْ ذي الجلالِ والعظَمةِ والكِبْرياءِ، ولا يَقْدِرُ على ذلكَ سِواهُ ﷻ الَّذي جعلَ في الأرضِ قابليَّةَ الإنباتِ، وأودعَ في الماءِ قابليَّةَ السَّقْيِ والإحياءِ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ كمالِ قُدرتِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ.

تعظيمُ شأنِ الإنشاءِ؛ لكونِهِ صادرًا عنِ اللهِ ذي العظمةِ

معنى اللّامِ ودلالتُها في شبهِ الجملةِ ﴿لَكُم﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ للامتنانِ على المُخاطَبينَ ببيانِ أنَّ منفعةَ ذلكَ راجعةٌ إليهِم، وأنَّهم هم المقصودونَ بالإنشاءِ، والمعنَى: فأنشأْنا لكُم خاصَّةً لا لنا[1].

دلالةُ حرفِ المعنى على الامتنانِ بما يعودُ بالنَّفعِ على الإنسانِ

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَكُم﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُم﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾؛ لتعجيلِ مَسَرَّةِ المُخاطَبينَ ببيانِ أنَّ

ملمحُ البيانِ عن تعجيلِ المَسَرَّةِ، وحُسْنِ انتظامِ الكلامِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

الإنشاءَ لهُم، إضافةً إلى أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ نوعَ طولٍ، فرُبَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بحُسْنِ انتظامِ الكلامِ.

معنى الباءِ في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ الجارَّةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِهِ: ﴿فَأَنشَأۡنَا﴾، وفيها معنى السَّببيَّةِ، أي: فأنشَأْنا لكُم بسببِهِ جنّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ، ويحتملُ أنْ تكونَ مُتعلِّقةً بمحذوفِ حالٍ، فتكونُ للمُلابَسةِ[1]، أي: فأنشَأْنا لكُم مُلتبِسةً بهِ جنّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ.

المعنى مرعيٌّ، سواء أفادت الباءُ السَّببيَّة أم الملابَسة

مرجعُ الضَّميرِ في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

ضميرُ الهاءِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ﴾ راجعٌ إلى الماءِ المذكورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: فأنشَأْنا لكُم بالماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ الممزوجِ بالتُّرابِ جنّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ[2].

الضَّميرُ الرّاجعُ إلى الماءِ، ذو أثرٍ في توجيه المعنى

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجمعِهِ:

جيءَ بلفظِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ﴾ مجموعًا مُنكَّرًا؛ لإفادةِ التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ؛ فالجنّاتُ الَّتي أنشأها اللهُ جلَّ وعزَّ بالماءِ الَّذي أنزلَهُ مِنَ السَّماءِ مُتعدِّدةٌ مُتنوِّعةٌ؛ إذ بعضُها مِنْ نخيلٍ، وبعضُها مِنْ أعنابٍ، كما يدلُّ عليهِ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ﴾، وبعضُها غيرُ ذلكَ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ قُدرتِهِ جلَّ وتباركَ، حيثُ جعلَ هذا الماءَ الممزوجَ بالتُّرابِ سببًا لإنباتِ هذهِ الجنّاتِ المُتنوِّعةِ المُتعدِّدةِ المُبهِجةِ ذاتِ المنظرِ الحسنِ[3].

إفادةُ التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ، مفيدٌ في تجلية المعنى وبيانه

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 503.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 471.

دلالةُ حرف الجرِّ في قوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾:

بيانُ نوعِ الجنّات مفصحٌ عن المراد من السّياق

﴿مِّن﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ بيانيَّةٌ، فهي بيانٌ لنوعِ الجنّاتِ بأنَّهُ نخيلٌ وأعنابٌ[1]، والمعنَى: فأنشأْنا لكُم بهِ جنّاتٍ هي نخيلٌ وأعنابٌ.

علَّةُ التَّصريحِ بالنَّخيلِ والأعنابِ:

ذكرُ أعظمِ الثِّمارِ وأشرفِها تذكيرٌ بما يعرف المخاطَبون

وصفَ جلَّ ثناؤُهُ الجنّاتِ الَّتي ذكرَها في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ بأنَّها مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ، ولم يَصِفْها بغيرِهما مِنْ ثمارِ الأرضِ؛ لأنَّ هذينِ النَّوعينِ مِنَ الثِّمارِ كانا أعظمَ ثمارِ الحجازِ وما قَرُبَ منها، فكانتِ النَّخيلُ لأهلِ المدينةِ، والأعنابُ لأهلِ الطّائفِ، فذكَّرَ القومَ بما يعرفونَ مِنْ نعمةِ اللّهِ عليهِم[2]، ولأنَّهما أيضًا أشرفُ الثِّمارِ، فذكرَهما مثالًا؛ تشريفًا لهما وتنبيهًا عليهما[3]، لكثرةِ منافعِهما؛ فإنَّهما يقومانِ مقامَ الطَّعامِ، ومقامَ الإدامِ، ومقامَ الفواكهِ رَطْبًا ويابسًا[4].

سرُّ تقديمِ النَّخيلِ على الأعنابِ:

ملمحُ تقديمِ الأكثرِ والأعزِّ عندَ العربِ

قُدِّمَ النَّخيلُ على الأعنابِ في قولِ اللّهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾؛ لأنَّهُ عندَ العربِ أكثرُ وأعزُّ[5]، وفوائدُه أكثرُ نفعًا للنّاسِ، فضلًا عنِ احتوائِه على جميعِ المُكمّلاتِ الغذائيّةِ، التي يحتاجُها النّاسُ، إضافةً إلى الانتفاعِ بجريدِ هذا النّخلِ، والجلوسِ في ظلّه، فيناسبُ تقديمُهُ مقامَ الامتنانِ بذكرِ الأهمِّ فالأهمِّ مِنَ الجنّاتِ، ومقامَ بيانِ عظيمِ القُدرةِ بذكرِ ما هو محسوسٌ مُشاهَدٌ بكثرةٍ في ديارِهم.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.

نُكتةُ جمعِ النَّخيلِ والأعنابِ وتنكيرِهما:

الإشارةُ إلى التَّنوُّعِ تأكيدٌ على التَّميُّزِ بالبيانِ الأروع

جيءَ بلفظَيِ النَّخيلِ والأعنابِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ مجموعَينِ منكَّرَينِ؛ لأنَّهما أنواعٌ مختلفةٌ، وهما بكلِّ أنواعِهما قد خلقَهما اللّٰهُ تعالى، وأنشأهما إنشاءً[1]، فيكونُ في هذا التَّنويعِ مبالغةٌ في إقامةِ الدَّليلِ على القُدرةِ، ومبالغةٌ في الامتنانِ على المُخاطَبينَ.

دلالةُ إعراب ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ﴾:

الجملةُ تجليةٌ للحالةِ أو الوصفِ المستفادِ من الجملة

جملةُ ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾، حالٌ مِنْ ﴿جَنَّٰتٍ﴾، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، أو صفةٌ لها[2]، لذلك لم تُعطفْ عليها لكمالِ اتّصالِها بها.

نكتةُ استعمالِ اللّامِ في: ﴿لَّكُمْ﴾:

في السّياقِ المخصَّصِ للفواكه تقويةٌ للامتنانِ المذكور

اللّامُ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ لمقامِ الامتنانِ على المخاطَبينَ ببيانِ أنَّ الفواكهَ الكثيرةَ لهُم، والمعنَى: لكُم خاصَّةً في الجنّاتِ فواكهُ كثيرةٌ[3].

علَّةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿لَّكُمْ﴾:

في إبرازِ المِنَّةِ عنايةٌ مُقرَّةٌ وتعجيلٌ للمَسَرَّة

تقديمُ ﴿لَّكُمْ﴾ على ﴿فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرِهِ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ مع كونِهِ نكرةً موصوفةً يصحُّ الابتداءُ بها؛ للاعتناءِ بكونِ الفواكهِ الكثيرةِ للمُخاطَبينَ، وتعجيلِ مَسَرَّتِهم بتقديمِ ما يدلُّ على كونِ منافعِ هذهِ الفواكهِ لهُم دونَ غيرِهم، وفي ذلكَ إحالةٌ لهُم على أمرٍ محسوسٍ مُشاهَدٍ ألِفوهُ وعَرَفوهُ، فيكونُ ذلكَ أقوى في طلبِ الاعتبارِ والشُّكرِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 503.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ على كونِ الجنّاتِ ظرفًا ومكانًا للفواكهِ الكثيرةِ، وكونِها بمثابةِ المَنْبَعِ لهذهِ الفواكهِ، وفي ذلكَ مزيدُ امتنانٍ على المُخاطَبينَ، وتحريكٌ لسِلْسِلةِ الشُّكرِ بالتَّنبيهِ على دواعيهِ.

الدَّلالةُ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ مسهمةٌ في الإبانة عن المراد

دلالةُ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾:

الظّاهرُ أنَّ ضميرَ ﴿فِيهَا﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ عائدٌ على الجنّاتِ المذكورةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾[1]، فكما أنَّ في الجنّاتِ النَّخيلَ والأعنابَ ففيها الفواكهُ الكثيرةُ[2].

الضَّميرُ الرّاجعُ إلى الجنّاتِ مبرزٌ بعض ما في الجنات من العطاءات

وقيلَ: يحتملُ أنْ يعودَ الضَّميرُ على النَّخيلِ والأعنابِ خاصَّةً؛ إذ فيها مراتبُ وأنواعٌ[3].

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿فَوَاكِهُ﴾:

جيءَ بلفظِ الفواكهِ مُنكَّرًا في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تعدُّدِ فواكهِ الجنّاتِ وتنوُّعِها؛ فالفواكهُ جمعُ فاكهةٍ، وهي الطَّعامُ الَّذي يُتفكَّهُ بأكلِهِ، أي: يُتلذَّذُ بطعمِهِ مِنْ غيرِ قصدِ القوتِ، فإنْ قُصِدَ بهِ القوتُ، قيلَ لهُ: طعامٌ، فمِنَ الأطعمةِ ما هو فاكهةٌ وطعامٌ كالتَّمرِ والعنَبِ؛ لأنَّهُ يُؤكَلُ رَطْبًا ويابسًا، ومنها ما هو فاكهةٌ وليسَ بطعامٍ كاللَّوْزِ والكُمَّثْرى، ومنها ما هو طعامٌ غيرُ فاكهةٍ كالزَّيتونِ[4]، ويمكنُ أن يكونَ التّنكيرُ مفيدًا للتّفخيمِ والتّعظيمِ.

الدَّلالةُ على التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ مفيدةٌ في تجليةِ المعنى

علَّةُ وصفِ الفواكهِ بالكثرةِ:

وصفُ الفواكهِ بالكثرةِ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ

أهميَّةُ الإشارةِ إلى عدمِ حصرِ جميعِ الأنواعِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 139، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 555.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 33.

﴿كَثِيرَةٌ﴾؛ لأنَّهُ لم يُحصَرْ جميعُ أنواعِها[1]، وباعتبارِ اختلافِ أصنافِها وكثرةِ إثمارِ كلِّ صنفٍ منها[2].

دلالةُ إعراب جملةِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾:

أثـــرُ عـطـفِ الجملةِ على ما قبلَها في تكامل المعاني واتِّساقها

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾، وفي هذا العطفِ إشعارٌ بأنَّ ثمرَها جامعٌ بينَ أمرينِ: أنَّهُ فاكهةٌ يُتفكَّهُ بها، وأنَّهُ طعامٌ[3].

وقيلَ: قولُهُ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ معطوفٌ على شيءٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: (تنظرونَ إلى حُسْنِها ونُضْجِها، ومنها تأكلونَ)[4].

وقيلَ: لمّا كانَ التَّقديرُ: (منها وهي طريَّةٌ تتفكَّهونَ) عُطِفَ عليهِ قولُهُ: ﴿وَمِنْهَا﴾، أي: (بعدَ اليُبْسِ والعَصْرِ ﴿تَأْكُلُونَ﴾)[5].

دلالةُ (مِنْ) في قولِهِ: ﴿وَمِنْهَا﴾:

تـدقـيـقُ عـرضِ النِّعمِ الموعودةِ والتَّشويقِ إليها

الظّاهرُ أنَّ (مِنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وهي في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ لـ ﴿تَأْكُلُونَ﴾، والمعنى: وبعضَها تأكلونَ[6].

وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مِنْ قولِهم: يأكلُ فلانٌ مِنْ حِرْفةٍ يحترفُها، ومِنْ تجارةٍ يتربَّحُ بها، يَعْنونَ أنَّها وِجْهتُهُ الَّتي منها رِزْقُهُ، كأنَّهُ قيلَ: وهذهِ الجنّاتُ وجوهُ أرزاقِكم ومَعايشِكم، منها ترتزقونَ وتتعيَّشونَ[7]، فـ (مِنْ) على هذا ابتدائيَّةٌ، والمفعولُ محذوفٌ[8]، وفي هذا الوجهِ بُعْدٌ[9]، والأوَّلُ هو الرّاجحُ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9991.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.
(3) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 153.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 471.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 3/ 180، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180.
(8) الطيبي، فتوح الغيب: 3/ 180.
(9) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 566.

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَمِنْهَا﴾:

يحتملُ الضَّميرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أنْ يكونَ راجعًا إلى الجنّاتِ كما هو الظّاهرُ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ راجعًا إلى النَّخيلِ والأعنابِ[2]، وقيلَ: يحتملُ أنْ يرجعَ إلى الفواكهِ، أي: ومِنَ الفواكهِ تأكلونَ[3].

مرجعُ الضَّميرِ إلى الجنّاتِ أوما فيها منبئٌ عن روعة ما فيها

نكتةُ تقديمِ ﴿وَمِنْهَا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَمِنْهَا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ تعظيمًا للامتنانِ بالجنّاتِ الَّتي يأكلُ منها المُخاطَبونَ[4]؛ لأنَّ التَّقديمَ يستدعي كونَ المُقدَّمِ مَحَطَّ عنايةِ المُتكلِّمِ والسّامعِ، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تأخيرِ ﴿تَأْكُلُونَ﴾ مراعاةً لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها مِنَ الفواصلِ.

تعظيمُ الامتنانِ ومراعاةُ الفاصلةِ من بليغِ البيانِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَأْكُلُونَ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الأكلِ واستمرارِهِ، أي: ومنها يتجدَّدُ لكم الأكلُ ويستمرُّ ولو بالادِّخارِ[5]، وفي ذلكَ زيادةُ مبالغةٍ في الامتنانِ؛ لأنَّ الأكلَ منها مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ، لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليهِ، إضافةً إلى ما يترتَّبُ على التَّعبيرِ بالمضارعِ، مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

الدَّلالةُ على استمرارِ الأكلِ وتجدُّدِهِ مناسبٌ للمضارعيَّةِ

دلالةُ إعرابِ قولِهِ: ﴿وَشَجَرَةَ﴾:

﴿وَشَجَرَةَ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ بالنَّصبِ، عطفٌ على ﴿جَنَّتٍ﴾ في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾[6]، أي: وأنشأْنا لكُم بهِ شجرةً تخرجُ مِنْ طورِ سَيْناءَ[7]، والمرادُ بها الزَّيتونةُ، وهي كثيرةٌ في طورِ سَيْناءَ مِنْ أرضِ الشّامِ[8].

العطفُ على (جَنّاتٍ) منبئٌ عن الاشتراكِ في الدَّلالةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 463.

سرُّ التَّخصيصِ لشجرةِ الزَّيتونِ:

استقلالُ الزَّيتونِ بمنافعَ لا توجَدُ في غيرِهِ، من إعجاز القرآن العلميّ

تخصيصُ شجرةِ الزَّيتونِ بالذِّكرِ مِنْ بينِ الأشجارِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾؛ لاستقلالِها بمنافعَ معروفةٍ[1]، ولأنَّهُ لا يتعاهدُها أحدٌ بالسَّقْيِ، وهي الَّتي يخرجُ الدُّهْنُ منها، فذكرَها اللهُ سبحانَهُ؛ امتنانًا منهُ على عبادِهِ بها، ولأنَّها أكرمُ الشَّجَرِ، وأعمُّها نفعًا، وأكثرُها بركةً[2].

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿وَشَجَرَةَ﴾:

تعظيمُ شأنِ شجرةِ الزَّيتونِ، وقيمتِها الغذائيَّةُ والصِّحيَّة

تنكيرُ ﴿وَشَجَرَةَ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ شجرةِ الزَّيتونِ وتفخيمِهِ، وبيانِ فضلِ خيراتِها ومنافعِها الكثيرةِ[3]، والمعنَى: وأنشأْنا لكم بهِ شجرةً عظيمةَ الشَّأنِ، مِنْ شأنِها كيتَ وكيتَ.

علَّةُ نِسبةِ شجرةِ الزَّيتونِ إلى طورِ سَيْناءَ:

مدحُ شجرةِ الزَّيتون باعتبارِ مكانِها الميمون

المرادُ بالشَّجرةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ شجرةُ الزَّيتونِ، وقد اختُلِفَ في سببِ نسبتِها إلى طورِ سَيْناءَ مع خُروجِها مِنْ بِقاعٍ كثيرةٍ في الأرضِ: فقيلَ: نُسِبَتْ إلى الطُّورِ؛ لأنَّهُ المنشأُ الأصليُّ لها، أو لكثرتِها فيهِ[4].

وقيلَ: تخصيصُ خُروجِها بطورِ سَيْناءَ؛ لأنَّ زيتونَهُ أجودُ الزَّينونِ[5].

وقيلَ: نُسِبَتْ إليهِ؛ لتعظيمِها وتشريفِها بذكرِ مَقَرِّها، وهو الجبلُ الَّذي كلَّمَ اللهُ فيهِ نَجيَّهُ موسى عليه السلام[6].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 566، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 154.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.

ولعلَّ هذا الوجهَ هو الأنسبُ، فيكونُ في الكلامِ مدحٌ لها باعتبارِ مكانِها المُبارَكِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِهِ: ﴿تَخْرُجُ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾؛ لاستحضارِ الصّورةِ العجيبةِ المُهِمَّةِ الَّتي كوِّنَتْ بها تلكَ الشَّجرةُ في أوَّلِ تكوينِها، حتَّى كأنَّ السّامعَ يُبصِرُها خارجةً بالنَّباتِ في طورِ سَيْناءِ[2].

استحضارُ الصّورةِ العجيبةِ المُهِمَّةِ من بليغِ البيانِ

ويمكنُ أنْ يُجعَلَ التَّعبيرُ بالمضارعِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الخُروجِ واستمرارِهِ.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ للابتداءِ، أي: وشجرةً يكونُ ابتداءُ خروجِها مِنْ طورِ سَيْناءَ، ويجوزُ أن تكونَ بمعنَى (في)، والمعنى: وشجرةً تخرجُ مُبارَكةً في طورِ سَيْناءَ[3].

المستنبتُ في الأرضِ المباركةِ لا يكون إلّا مباركًا

غرضُ إضافةِ الطّورِ إلى سَيْناءَ:

﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ إمّا أنْ يكونَ مِنْ إضافةِ الطّورِ إلى بُقْعةٍ اسمُها سَيْناءُ، فيكونَ مِنْ إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ.

احتمالُ إضافةِ الطّورِ إلى البُقْعةِ، أوْ كونِ التَّركيبِ اسمًا

وإمّا أنْ يكونَ اسمًا للجبلِ مُركَّبًا مِنْ مضافٍ ومضافٍ إليهِ، كامرئِ القيسِ، وكبَعْلَبَكَّ، وقيلَ: هو جبلُ فلسطينَ، وقيلَ: بينَ مِصْرَ وأيْلَةَ، ومنهُ نوديَ موسى عليه السلام[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 224، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 38.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.

نكتةُ إعرابِ جملةِ ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾:

الجملةُ صفةٌ ثانيةٌ للشَّجرةِ منبئةٌ عن بعض خصائصها

قولُهُ ﷻ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لقولِهِ: ﴿وَشَجَرَةٗ﴾[1]، والغرضُ مِنْ هذهِ الصِّفةِ مدحُ الشَّجرةِ باعتبارِ ما هي عليهِ في نفسِها بعدَ مدحِها باعتبارِ المكانِ الَّذي تخرجُ منهُ[2].

وقيلَ في بلاغةِ هذهِ الصِّفةِ أيضًا: لمّا ذكرَ سبحانَهُ إنشاءَ هذهِ الشَّجرةِ بهذا الجبلِ البعيدِ عن مياهِ البحارِ؛ لعُلوِّهِ وصلابتِهِ، أو بما حولَهُ مِنَ الأرضِ الحارَّةِ - ذكرَ تميُّزَها عن عامَّةِ الأشجارِ بوجهٍ آخرَ عجيبٍ، فقالَ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَنۢبُتُ﴾:

استحضارُ الصّورةِ العجيبةِ الشَّأنِ من جميلِ البيانِ

في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ دلالةٌ على استحضارِ الصّورةِ المُهِمَّةِ العجيبةِ لشجرةِ الزَّيتونِ المباركةِ، وهي تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلينَ، وكأنَّ السّامعَ يُبْصِرُها وهي في هذا الحالِ العجيبِ البديعِ.

ويمكنُ أنْ يُجعَلَ التَّعبيرُ بالمضارعِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ كونِها تَنْبُتُ بذلكَ واستمرارِهِ.

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿تَنۢبُتُ﴾ وبلاغتها:

تعدُّدُ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ مفسحٌ لاستنباطِ الدَّلالاتِ

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيْسٌ: ﴿تُنۢبِتُ﴾ بضمِّ التّاءِ وكسرِ الباءِ، وقرأ الباقونَ: ﴿تَنۢبُتُ﴾ بفتحِ التّاءِ وضمِّ الباءِ[4].

فأمّا القراءةُ الأولى ففيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ (أنبتَ) بمعنى (نبتَ)، فهو ممّا اتَّفقَ فيهِ فعَلَ وأفعلَ.

الثّاني: أنَّ الهمزةَ للتَّعديةِ، والمفعولُ محذوفٌ؛ لأنَّ المعنى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 224.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 125.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 328.

مفهومٌ، أي: تُنْبِتُ ثَمَرَها، والباءُ في ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ حالٌ مِنَ المفعولِ، أي: مُلتبِسًا بالدُّهْنِ.

الثّالثُ: أنَّ الباءَ مزيدةٌ في المفعولِ بهِ، كما في قولِهِ جلَّ وتبارك: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: 195].

وأمّا القراءةُ الأخرى فواضحةٌ، والباءُ للحالِ مِنَ الفاعلِ، أي: مُلتبِسةً بالدُّهْنِ، يعني: وفيها الدُّهْنُ[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾:

بيانُ أنَّ خلاصةَ دهنِ الزَّيتونِ غذاءٌ وشفاءٌ

المرادُ بالدُّهْنِ في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾: الزَّيْتُ الَّذي يُؤكَلُ ويُدّهَنُ بهِ[2]، واللّامُ فيهِ للعهدِ، أي: تَنْبُتُ بالدُّهْنِ المعهودِ، وهو زَيْتُ الزَّيتونِ، وإنَّما حُمِلَتْ على العهدِ؛ لعدمِ الدَّليلِ على إرادةِ الجنسِ أوِ الاستغراقِ؛ إذ ليسَ المرادُ أنَّها تَنْبُتُ بكلِّ أنواعِ الدُّهْنِ، وقيلَ في سرِّ تعريفِ الدُّهْنِ هنا: إنَّهُ عُرِّفَ؛ لأنَّهُ أجلُّ الأدهانِ وأكملُها[3].

دلالةُ إعرابِ قولِهِ: ﴿وَصِبْغٍ﴾:

الصِّبْغُ معطوفٌ على الدُّهْنِ مشتركٌ معه في الدّلالةِ

الصِّبْغُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ﴾، معطوفٌ على الدُّهْنِ جارٍ على إعرابِهِ[4]، وهو مِنْ عطفِ أحدِ وصفَيِ الشَّيءِ على الآخرِ، أي: تَنْبُتُ بالشَّيءِ الجامعِ بينَ كونِهِ دُهْنًا يُدّهَنُ بهِ ويُسْرَجُ منهُ، وكونِهِ إدامًا يُصْبَغُ فيهِ الخُبْزُ، أي: يُغْمَسُ فيهِ للائتدامِ[5].

وعطفُ الصِّبْغِ على الدُّهْنِ، ليسَ مِنْ بابِ عطفِ الشَّيءِ على نفسِهِ، بل هو باعتبارِ المغايرةِ فيما تدلُّ عليهِ مادَّةُ اشتقاقِ الوصفِ؛ فإنَّ الصِّبْغَ ما يُصْبَغُ بهِ، والدُّهْنَ ما يُدّهَنُ بهِ، والصِّبْغُ أخصُّ،

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 328.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 126.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85.

فهو مِنْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ للاهتمامِ، وكانوا يَأْدِمونَ بهِ الطَّعامَ، وذلكَ صَبْغٌ للطَّعامِ[1].

فائدةُ عطفِ الصِّبْغِ على الدُّهْنِ:

في قولِهِ ﷻ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ المُتضمِّنِ عطفَ الصِّبْغِ على الدُّهْنِ، تنبيهٌ على غايةِ إحسانِهِ جلَّ وتباركَ بهذهِ الشَّجرةِ الَّتي أنعمَ بها على عِبادِهِ؛ لأنَّها تُخْرِجُ هذهِ الثَّمرةَ الَّتي يَكْثُرُ بها الانتفاعُ وهي طَرِيَّةٌ ومُدَّخَرَةٌ، وبأنْ تُعْصَرَ فيظهرَ الزَّيْتُ منها، وتَعْظُمَ وجوهُ الانتفاعِ بهِ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ مناسبةٍ لمقامِ الامتنانِ على المُخاطَبينَ.

التَّنبيهُ على إحسانِهِ سبحانَهُ، بهذهِ الشَّجرةِ المباركةِ المزدانةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الصِّبْغِ:

في لفظِ الصِّبْغِ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ الصِّبْغَ بكسرِ الصّادِ: ما يُصْبَغُ بهِ، أي: يُغيَّرُ بهِ اللَّوْنُ، كالزَّعْفَرانِ والوَرْسِ ونحوِهما، ثمَّ تُوُسِّعَ في إطلاقِهِ على كلِّ مائعٍ يُطْلَى بهِ ظاهرُ جسمٍ ما، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138]، وسُمِّيَ الزَّيْتُ صِبْغًا؛ لأنَّ الخُبْزَ إذا غُمِسَ فيهِ يكونُ بلَوْنِهِ[3].

الصِّبْغُ مُستعارٌ للإدامِ، ممتنٌّ به على الأنام

والاستعارةُ تصريحيَّةٌ، شُبِّهَ الزَّيْتُ بالصِّبْغِ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ وأُبقيَ المُشبَّهُ بهِ، بجامعِ التَّلوُّنِ بلونِهِ إذا غُمِسَ بهِ.

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿وَصِبۡغٖ﴾:

قيلَ: إنَّ تنكيرَ ﴿وَصِبۡغٖ﴾، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾؛ لأنَّ في الإدامِ ما هو أشرفُ منهُ وألذُّ، وإنْ كانَتْ بركتُهُ مشهورةً[4].

التَّنكيرُ للتَّعظيمِ منبئٌ عن كثرةِ الخيرِ ورحابةِ الانتفاعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 38.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 325، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 156، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 38.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 126.

ولعلَّ الأنسبَ بمقامِ الامتنانِ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ أنْ يُحمَلَ التَّنكيرُ على التَّعظيمِ، أي: تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ عظيمِ الشَّأنِ للآكلينَ؛ لِما فيهِ مِنْ كثرةِ الخيراتِ والمنافعِ.

معنى حرفِ الجرِّ في قولِهِ: ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾:

تقويةُ الامتنانِ بمنافعِ الدُّهنِ للآكلينَ، تفضُّلٌ مـن الـلـه ربِّ العالمين

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وهي تُفيدُ أنَّ المنفعةَ الَّتي جعلَها اللهُ ﷻ في الدُّهْنِ والصِّبْغِ راجعةٌ للآكلينَ، ومملوكةٌ لهُم؛ تفضُّلًا منهُ ﷻ على عبادِهِ، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ للامتنانِ، ببيانِ أنَّ نَفْعَ الدُّهْنِ والصِّبْغِ للمُخاطَبينَ الآكلينَ لا لهُ ﷻ.

دلالةُ (أل) في قولِهِ: ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾:

سياقُ العُمومِ مفيدٌ للإبانةِ عن المعنى المروم

تدلُّ لامُ التَّعريفِ الدّاخلةُ على الجمعِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ على العُمومِ، فتُفيدُ أنَّ منفعةَ الدُّهْنِ والصِّبْغِ لجميعِ الآكلينَ، وفي ذلكَ توسيعٌ لدائرةِ الامتنانِ، ببيانِ شمولِها لجميعِ المُخاطَبينَ، ولذلكَ كانَ حقًّا عليهم أنْ يتَّعِظوا ويَعتبِروا، ويَحْمَدوا ويَشْكُروا، ويُقْلِعوا عمّا هم فيهِ مِنَ الكِبْرِ والعِنادِ.

نكتةُ اختيارِ لفظِ الآكلينَ دونَ غيرِهِ:

اختيارُ اللَّفْظِ المُناسبِ لمقامِ الامتنانِ من بليغِ البيانِ

اختيرَ لفظُ الآكِلينَ دونَ غيرِهِ في قولِ الحقِّ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾؛ لِما فيهِ مِنْ شدَّةِ المناسبةِ لمقامِ الامتنانِ بالنِّعَمِ على العِبادِ؛ إذ في هذا اللَّفظِ إيماءٌ إلى وقتِ الانتفاعِ بالدُّهْنِ والصِّبْغِ، وهو وقتُ الأكلِ، ولا شكَّ أنَّ الامتنانَ بالنِّعمةِ يكونُ أعظمَ في وقتِ الاحتياجِ إليها.

وفي هذا اللَّفظِ أيضًا إشعارٌ بأنَّ العِبادَ يقتاتونَ ويأكلونَ ممّا أنعمَ اللهُ بهِ عليهم، لا بكَدِّهم وتحصيلِهم، فهم آكلونَ لِما رزقَهم اللهُ بمنِّهِ وكرمِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾:

الـدَّلالـةُ على رُسـوخِـهـم في صـفـةِ الأكـلِ زيـادةُ إيـضـاحٍ للسّياق

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾، ولم يُعبَّرْ بصيغةِ الفعلِ، فلم يُقَلْ مَثَلًا: (تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للَّذينَ يأكلونَ)؛ لِما في التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ مِنَ الدَّلالةِ على تمكُّنِ المُخاطَبينَ في صفةِ الأكلِ ورُسوخِهم فيها، حتَّى صارَتْ كأنَّها مِنَ الصِّفاتِ الَّتي جُبِلوا عليها، وفي ذلكَ مبالغةٌ عظيمةٌ في الامتنانِ؛ لِما في اسمِ الفاعلِ مِنَ الإشارةِ إلى كثرةِ وقوعِ الأكلِ منهُم لهذهِ الخيراتِ المباركةِ.

نكتةُ تخصيصِ الأنواعِ الثَّلاثةِ بالذِّكرِ:

أكـرمُ الشَّجرِ في الوجود ما ذُكِـرَ في القرآن المجيد

تخصيصُ الأنواعِ الثَّلاثةِ - وهي النَّخيلُ والأعنابُ والزَّيتونُ - بالذِّكرِ في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾؛ لأنَّها أكرمُ الأشجارِ وأفضلُها وأجمعُها للمنافعِ والفوائدِ[1]، وفي ذكرِها زيادةُ مبالغةٍ في الامتنانِ، واستنزالِ طائرِ كِبْرِ العبادِ وعنادِهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 33.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»